جذور الشعر السياسي

عند نزار القباني

الجزء الأول

الدكتور

فاضل محمد عبد الله الزبيدي

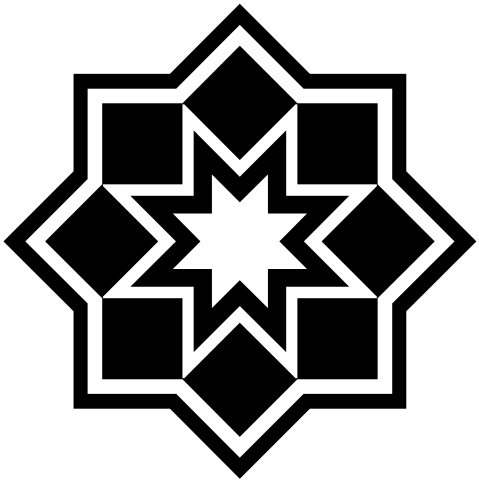

المقدمة

لم يوجد شاعر من الشعراء العرب المعاصرين شغل الناس قراء ونقاداً مثل نزار قباني شغلهم قديماً وشغلهم حديثاً .. شغلهم وهو شاعر الغزل والمرأة وشغلهم وهو شاعر السياسة والمقاومة وكأنه يقول كما قال قديماً الشاعر العربي الكبير أبو الطيب المتنبي :

تنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصم

تغزل نزار في المرأة فعبر عما خجلت وأحجمت أن تغير عنه خواطر ومشاعر جمالها وزينتها وملابسها ومتعلقاتها وأشياءها الصغرى والكبرى ونقل إليها عين القارئ تتلصص عليها من ثقب الباب فتراها كاسية وعارية وتنصت عليها في غفلة عنها فسمع حديثها وسرها وهمسها وآهاتها وعرى حتى ما تخجل المرأة من إظهاره من شبق ولذة وشذوذ حنسي مما لا يروق للكثيرين او الكثيرات التعبير عنه او حتى التلميح به.

وبدعوى - تحرير المرأة استبعدها نزار لرغباته وشهواته ونزواته.

وعندما وقعت نكسة ١٩٦٧م واهتز العالم العربي بفعل زلزالها الرهيب اصدر نزار قباني قصيدته ((هوامش على دفتر النكسة)) التي كانت منشوراً سياسياً أصدرته المعارضة العربية لتكون صرخة في وجه الحكام العرب والممارسات العربية الخاطئة والواقع العربي المرير والفكر العربي المتخلف وكل الأسباب التي أفرزت النكسة . . لقد كانت ((هوامش على دفتر النكسة)) رسالة صريحة موجهة إلى عبد الناصر فيها من الغضب والسباب والهجاء السياسي اكثر مما فيها من القيمة الادبية والشعرية حتى عندما اراد نزار ان يهاجم رجل الشارع العربي أو الإنسان العربي بصفة عامة اتجه بهجومه وهجائه إلى عبد الناصر لأنه لم يعرف غيره زعيماً ولا صديقاً ولا أخا ولا أبا ولا مسؤولاً يتوجه إليه بالخطاب السياسي .

وعندما مات جمال عبد الناصر وجه إليه نزار أربع قصائد رثاء وكأنها رسائل إليه في مثواه الأخير.. يعاتب العرب على جرمهم الشنيع في حق الزعيم الذي نذر حياته من أجلهم وكيف انهم تعاملوا معه بنقائصهم وتخلفهم وغدرهم الذي اعتادوا عليه منذ القدم ولم يرحموا لا الأنبياء ولا الأئمة ولا القادة ولا الزعماء فليس غريباً عليهم أن يجهزوا على الزعيم جمال عبد الناصر .

وكانت قصائده إلى عبد الناصر محل قيل وقال بعضهم صفق له ، وبعضهم صفق على وجهه، بعضهم وضعه في مصاف الأنبياء ، وبعضهم وضعه في مصاف الكفار ، ثم توالت قصائد نزار السياسية وأصبحت تلقي اهتماماً ورواجاً من جميع الأوساط الأدبية وغير الأدبية حتى رجل الشارع راح يتفاعل مع قصائد نزار السياسية ويرى فيها تعبيراً عن المشحون الفكري لديه .

وعندما حاولت الأجهزة الأمنية في مصر منع تداول قصيدة هوامش على دفتر النكسة ووضع اسم الشاعر على قائمة الممنوعين من دخول مصر . . سارع نزار بإرسال رسالة خطية إلى الزعيم جمال عبد الناصر شرح له فيها الظروف والمناخ النفسي الذي افرز تلك القصيدة وشفع الرسالة بنسخة من القصيدة . . وقرا عبد الناصر القصيدة ولم يجد فيها شيئاً أقوى مما كان يقال في الشارع أو اشد من النكت السياسية اللاذعة التي تداولها الناس في تلك الفترة كتفريغ عن شحنات الغضب العارم المكبوت في النفس العربية عقب النكسة .

واشر عبد الناصر على رسالة نزار بعدة تعليمات سمح فيها بتداول القصيدة ، كما سمح للشاعر بدخول ارض الكنانة على الرحب والسعة .

واستمر نزار في منهجه الشعري السياسي مهاجماً لاذعاً شديد اللهجة يعري العرب ويكشف الستار عن خطاياهم وعيوبهم وممارستهم المبتذلة بأسلوب ساخر وحاد دون أن يغضب منه العرب بل احبه القارئ العربي واشتدت لهفته على قصائد نزار التي أصبحت مثل المنشورات السرية الممنوعة تقلق الحكام وتقض مضاجعهم وتسبب لهم الأرق وتطير النوم من عيونهم .

ومرة أخرى يختلف النقاد في شان نزار قباني وشعره السياسي ، بعضهم اعتبر نزار مناضلاً بسن القلم في خندق واحد مع المناضلين بالرشاش والكلاشينكوف ، وبعضهم اعتبره مزايداً استثمر النكسة وألام الجماهير العربية ، وبعضهم الآخر أغضبه الهجاء السياسي الذي صبه نزار على العرب واعتبر إهانة للعرب ومقدساتهم واتهم نزار بالشعوبية لأنه يهاجم كل ما هو عربي ويتهم العرب بالتخلف والجهل والجاهلية والغدر ويسخر من تاريخهم وأفكارهم وأدبهم ويهزا بكل ما يقدسه العرب . . وبعضهم الآخر اتهم نزار بالسادية والرغبة في جلد الذات العربية في محاولة للتشفي واتخذوا من انتحار شقيقته وصال سبباً سيكولوجيا لدعوى السادية التي اتهموا بها نزار وانه كان يحاول جلد الذات العربية التي تسببت برجعيتها وصلفها في مقتل شقيقته التي حرمتها التقاليد العربية من الزواج ممن تحب فانتحرت.

ولكن سواء كان هذا أو ذاك أو ذلك . . فعلى جميع التوجهات والافتراضات يبقى نزار شاعراً كبيراً من اكبر واعظم شعراء العرب المعاصرين ومن أقوى المناضلين بسن القلم والسابحين ضد التيار في بحر المعترك السياسي شغل أذهان الذين اختلفوا معه أو الذين اتفقوا عليه . . وتبقى قصائده ملاحم عربية تسجل بكل أمانة مرحلة من أهم مراحل التحولات السياسية في فترة من اخطر فترات التاريخ العربي الإطلاق.

ونحن هنا نحاول إلقاء الضوء على بعض قصائد نزار السياسية التي أغفلها النقاد لأن قصائد ((هوامش على دفتر النكسة)) و ((الممثلون)) و ((رثاء جمال عبد الناصر)) و ((المهرولون)) و ((شعراء

الأرض المحتلة)) و ((متى يعلنون وفاة العرب)) سرقت الأضواء من باقي قصائد نزار السياسية والتي لا تقل عنها أهمية إن لم تكن تتفوق عليها فنياً وسياسياً.

أن معظم قصائد نزار السياسية كانت موجهة إلى جمال عبد الناصر بشكل مباشر أو غير مباشر . .

ولأن جمال عبد الناصر كان بالنسبة لنزار ليس مجرد زعيم عربي بل كان بالنسبة نزار قباني كانت هذه العلاقة إشكالية خاصة تحتاج إلى محلل نفسي اكثر مما تحتاج إلى ناقد أدبي أو مؤرخ سياسي .

الفصل الأول

جذور الشعر السياسي عند نزار قباني

إذا بحثنا عن الجذور وتتبعنا البدايات الشعرية وانطلاقة المد الوطني لدى نزار قباني وجدنا أن بذور الشعر الوطني عنده قد تم غرسها عام ١٩٥٤ . وان الإرهاصات الأولى للحس الوطني قد جاءته عن طريق والده توفيق قباني ((الحلواني)) الذي فتح بيته للمقاومة الوطنية ضد الفرنسيين وكان منزله ملتقى للثوار ثم التحاق نزار بمدرسة الحقوق وهي مصنع الساسة والمناضلين ثم عمله في السلك الدبلوماسي فور تخرجه وارتباطه بشكل مباشر بالسياسة والسياسيين ولكن كل ذلك لم يحرك ساكناً في نزار قباني ولم يشكل عنده الحافز الملح ولا الدافع القوي لكي يتجه إلى الأشغال بهموم السياسة كتابة وشعراً بشكل فعلى مباشر .

فالملاحظ من سيرة نزار قباني ومن أشعاره أنه يهجر مخدع المرأة ولم يترك محرابها الذي وقف على أبوابه متعبداً ولم يتأخر عن الحديث عن جمالها ومفاتن جسدها ومرآتها وعطورها وملابسها ومكياجها وأشيائها الصغيرة والكبيرة .

حتى لحظة استقلال سوريا وخروج المحتل الفرنسي لم تلفت نظر نزار قباني ولم تحرك فيه الحس السياسي ولم تفجر الطاقات الوطنية الكامنة فيه .

ولكن التحولات الكبرى في حياة نزار قباني ارتبط ارتباطاً مباشراً بنكسة ١٩٦٧ فلقد كانت حرب حزيران وما أسفرت عنه من واقع عسكري وسياسي واجتماعي ونفسي كانت هي الزلزال الذي هز وجدان نزار قباني وحوله بزواية مقدارها ١٨٠ درجة نحو هموم الوطن وأحزان وألام الأمة العربية بأسرها بالشعر الوطني والسياسي وكتب أروع قصائده وسجل اعظم إبداعاته .

ونحن هنا نؤكد أن نكسة ١٩٦٧ هي الإعصار السياسي أو الزلزال الكبير الذي اعتصر وجدان شاعرنا وحوله من شاعر الحب والحنين إلى شاعر يكتب بالسكين[١] وذلك عندما اصدر منشوره السياسي الهام

الذي أقام الدنيا ولم يقعدها في ذلك الوقت وهو قصيدة ((هوامش على دفتر النكسة)) ولا يؤثر في ذلك بعض المحاولات التي قدمها نزار في مجال القصيدة الوطنية اعتباراً من عام ١٩٥٤ وإن كانت تلك القصائد لم تشغل بال القارئ العربي ولم يتوقف أمامها كثيراً مثلما حدث مع قصائد نزار السياسية بعد النكسة . . وكانت تلك القصائد الوطنية ـ قبل ١٩٦٧ ـ تبدو باهتة باردة جافة خامدة لا تلمس فيها ذلك التوهج والبريق الموجود في فتوحاته الغزلية وأشعاره العاطفية في المرأة التي تخصص فيها وتوظيف في بلاطها.

فمن الملاحظ أن أحداث السياسية الكبرى التي حفلت بها المنطقة العربية خلال فترة ما قبل ١٩٦٧ والتحولات الوطنية سواء على المستوى الإقليمي في سوريا أو القومي على مستوى الوطن العربي لم تكن تشغل مساحة مناسبة من اهتمامات نزار قباني لدرجة أن حدثاً وطنياً كبيراً مثل استقلال سوريا عن الاحتلال الفرنسي لم يحرك ساكناً عند نزار قباني ولم يفكر في التعبير عنه ولو ببيت واحد من الشعر ومر الحدث مرور الكرام .

لذلك فقد ظل نزار محصوراً في فلك الشعر النسائي واعده النقاد والكتاب شاعر المرأة الأول لذلك فقد تألم نزار كثيراً من هذا التوظيف الأدبي ، ونحن هنا نؤكد أن نكسة ١٩٦٧ هي الإعصار السياسي أو الزلزال الكبير الذي هز وجدان شاعرنا هزاً وحوله من شاعر الحب والحنين إلى شاعر يكتب بالسكين كما أسلفنا ، وذلك بإصدار منشوره السياسي المهم الذي احدث دوياً هائلاً في ذلك الوقت والمسمى بقصيدة (هوامش على دفتر النكسة) ولكن والحق يقال إن نزار قباني كتب عدة قصائد وطنية اعتباراً من عام ١٩٥٤ وإن كانت تلك القصائد لم تشغل بال القارئ العربي ولم يتوقف أمامها كثيراً مثلما حدث مع قصائد نزار بعد النكسة . . وبالرغم من هذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد من النقاد ويعترف بها نزار نفسه إلا انه راح يصرخ في وجه القراء والنقاد بان يخرجوه من ذلك النطاق الضيق الذي حصروه فيه وهو ((شاعر المرأة)) ويقول لهم هل من الممكن إكراماً لكل الأنبياء أن تخرجوني من هذه القارورة الضيقة التي وضعتني فيها الصحافة العربية أي قارورة الحب والمراة . . ويستطرد نزار قائلاً:

ـ يا جماعة أنا من زمان مستقيل من عملي كحارس ليلى على باب المرأة أنا الآن أؤدي خدمتي العسكرية للوطن وممنوع على أن أقابل حبيبتي إلا في أيام الإجازات[٢] .

إنه يعلن بكل صراحة انه كشاعر يؤدي خدمة العلم أو مجند لأداء الخدمة العسكرية للوطن وهو في معسكر الواجب الوطني ومحظور عليه كل الممارسات السابقة حتى لقاء حبيبته غير مسموح به إلا في يوم الإجازة . . هذا الإعلان وجهه الشاعر إلى الشعراء والنقاد عام ١٩٧٥ أي بعد مرور ثماني سنوات على كتابة قصيدته الخطيرة ((هوامش على دفتر النكسة)) وبعد أن قطع شوطاً طويلاً في مجال الشعر السياسي وبعد أن أدرك أهمية الدور المنوط بالشاعر في هذه المرحلة التي تمر بها الأمة العربية بل أن

الشاعر يرى أن شعره القديم في الغزل النسائي ربما كان من مخلفات الجيل الذي صنع النكسة ، صحيح أن الشاعر أدرك أهمية دوره الوطني ، وصحيح أن الشاعر احترف الشعر السياسي وصحيح انه جند نفسه لأداء الخدمة الوطنية ولكنه صرح في الوقت نفسه انه مسموح له بلقاء الحبيبة في أيام الإجازات وأيام الإجازات هي استثناء على القاعدة والشاعر يقصد بهذه الإشارة انه منقطع في هذه المرحلة لكتابة الشعر السياسي ولكنه في الوقت نفسه لم ينقطع عن شعر المرأة والذي ترك له أيام الإجازات.

لقد جعل الشاعر من نفسه راصداً لحركة العمل السياسي العربي وظل يواكب ميلاد العمل الفدائي الفلسطيني ويسجل أيضا موقفه الصارخ من تخاذل بعض الحكام العرب والحكومات العربية . . وحينما خطفت قضية فلسطين الأضواء على الساحة العربية والدولية حجز نزار لنفسه مقعداً في الصفوف الأول من مؤيديها ثم وصل إلى مرتبة الصدارة في المرحلة الأخيرة من حياته ولم يكن ذلك على حساب قصائد الذائعة الصيت في شؤون جسد المرأة بل كان رد فعل طبيعياً لمتطلبات التغيرات في الواقع على الساحة العربية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وما نتج عن ذلك من تغيرات في الذوق العام لدى القارئ العربي منذ عام ١٩٦٧[٣] .

نعم بدأت القصيدة السياسية تشغل حيزاً وجانباً مهماً من اهتمامات نزار وتنافس وتزاحم قصائده الغزلية كما بدأت القلوب العربية ولآذان تخفق وتشنف لسماع شعره السياسي بنفس الاهتمام والإحساس الذي قابلوه به شعره النسائي ، واستمرت القصيدة السياسية جنباً إلى جنب مع قصيدة الغزل الصريح معتمدة على رصيد نزار في وجدان الأمة العربية ثم تحفر مكانتها المستقلة في ذلك الوجدان. حيث تستمر الثورة على الواقع المهزوم عن طريق سياسي كتبت كلماته بماء النار موجهاً في المقام الأول إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر باعتباره نائباً عن الضمير العربي كله وباعتباره اكبر الزعامات العربية وباعتباره رئيس اكبر دولة كان الاعتماد عليها في الصراع مع إسرائيل ثم يتجه إلى زعماء وأثرياء العرب بسبب انشغالهم عن الهم العربي الأول وانغماسهم في ملذاتهم وإرضاء شهواتهم وإهدار المال العربي في غير الصالح العربي وفي النهاية يتوجه بهذا الخطاب الجارح الدامي إلى الشعب العربي بكامل اتساع الأرض العربية ليس منتقداً بل موبخاً ومعنفاً بأسلوب حاد ويلفظ جارح إلى درجة القذف والسبب وإلقاء اللعنة حتى على لفظ ((عربي)) مثل قوله:

لا تسافر بجواز عربي
لا تسافر مرة أخرى لأوروبا
فأوربا كما تعلم ضاقت بجميع السفهاء
لا تسافر بجواز عربي بين أحياء العرب

فهم من اجل قرش يقتلونك
وهم حين يجوعون مساء يا كلونك
لا تكن ضيفاً على حاتم طي
فهو كذاب ونصاب
لا تسر وحدك بين أنياب العرب
يا صديقي رحم الله العرب

فقد وصمهم ووصفهم باحقر النايا مثل السرقة والقتل والخيانة والشح والبخل وفي النهاية يحكم عليهم بالموت.
ويقول أيضا في قصيدة أخرى:

إياك أن تقرا حرفاً من كتابات العرب
فحربهم إشاعة وسيفهم خشب
وعشقهم خيانة ووعدهم كذب
إياك أن تسمع حرفاً من خطابات العرب
فكلها نحو وصرف وأدب
وليس في معاجمهم الأقوام
اقوام اسمهم عرب

إنه يمسك معولاً يهدم كل المقومات العربية افترائهم أجوف وتافه وكتبهم سخافة وخواء وفروسيتهم وهم وطنطنة كذابة وحبهم ينتهي بالخيانة ووعودهم كاذبة وخطبهم مجرد زخرفة لفظية .. وقد وصل الأمر إلى حد إنكار وجودهم لتفاهتهم وضالتهم فيقول انه ليس هناك شيء اسمه العرب وهو هنا يذكرنا بقصيدتي ((الرجال والخوف)) و ((الأرض السيباب)) للشاعر الإنجليزي ت . س . إليوت اللتين كتبهما بعد الحرب العالمية الثانية معبراً عن مدى الخراب والدمار الذي أصاب الحضارة واحب الإنسان من الداخل.
وبالرغم من هذه الشدة ضد الشارع العربي ازداد إعجاب القارئ العربي بشعر نزار وخطابه السياسي لأن القارئ أدرك انه الجراح الذي ينكأ الجرح لينظفه أولا ثم يعالجه ثانياً وأدرك أيضا أن نزار بجرأة وجسارة قال ما يريد كل عربي أن يقوله ولكنه يخاف أو يخجل . . فكلما تواجه نزار برسائله إلى القارئ العربي ازداد القارئ بها اهتماماً ولم تفلح وشايات النقاد في فصم العلاقة بين الشاعر وقرائه ومحبيه

ومعجبيه الذين ازداد شغفهم بشعره السياسي لدرجة أن بعض دواوينه طبعت حوالي عشرين طبعة وفشلت كل محاولات المنع والحظر والمصادرة.

كما أن جميع أجهزة الأمن والمنشغلين بالرقابة السياسية فشلوا في استعداء جمال عبد الناصر على نزار قباني وقطع علاقة التواصل بينهما بل أن جمال عبد الناصر عندما كانت تصله قصائد نزار كان يزداد بها وإعجاباً ويطلب عدم مصادرتها كما يحول دون اتخاذ أي إجراءات أمنية ضد نزار ويسمح له بدخول مصر والمشاركة في مؤتمراتها الأدبية بل كانت الدعوة توجه لنزار فيأتي إلى مصر ويشتم المصرين والزعيم ويسافر دون أية إجراءات تعسفية ضده . . وهي خاصية لم يتمتع بها إلا نزار في الوقت الذي كانت تتخذ فيه إجراءات ضد كتاب وشعراء لم يكتبوا أو يقولوا عشر ما قاله نزار أمثال الأبنودي واحمد عبد المعطي حجازي واحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وبدر توفيق وغيرهم كثيرون.

كان نزار قد وصل فعلاً إلى مرحلة إقناع القارئ بان البتر هو خير وسيلة للعلاج وان المثل العربي التراثي وهو ((آخر الدواء الكي)) هو العلاج الوحيد للنكسة العربية فيقول نزار بان القصيدة التي لا تنزف على اصابع قارئها نصابة بفقر الدم.

وقد آثار الموقف المتناقض بين غضب نزار على العرب ثم مقابلة هذا الغضب وهذا الجلد اليومي بحب وإعجاب وشغف ، هذا الموقف أغاظ النقاد والصحفيين وأثار حفيظتهم ضد نزار فراحوا يتربصون به ويتصيدون له الأخطاء ويستعدون عليه السلطان والمسؤولين[٤] ، وراحوا يكتبون بأنفسهم نيابة عن الحكومات أوأمر الاعتقال وقرارات الضبط والإحضار بل وينصبون من أنفسهم قضاة وجلادين يصدرون أحكام الإدانة وينفذونها على الشاعر الهارب من العدالة.

وقد فسر بعض النقاد هذه المعاملة القاسية من نزار للعرب بأنها معاناة حقيقية دفعته إلى تبني هذا الموقف وأنها جلد اللذات العربية وتعبير عن رفض ما وصلت إليه الأمة العربية من التشرذم والهوان[٥] ، وما وصل إليه الحس العربي من الفتور والبارود والبلادة وما وصل إليه الحكام العرب من حرص على المناصب والكراسي وتكالب على الشهوات والملذات ثم محاولة إسكات كل الأصوات الثائرة بممارسات قمعية سلطوية تعود بنا قروناً طويلة من الجاهلية وتتنافى مع كل أساليب التحضر ومع حقوق الإنسان.

يقول نزار عن بدايات علاقاته بهموم الوطن : (كانت معركة المقاومة ضد الانتداب الفرنسي تمتد من الأرياف السورية إلى المدن والأحياء الشعبية وكان حي الشاغور ـ حيث كنا نسكن ـ معقلاً من معاقل المقاومة . وكان زعماء هذه الأحياء الدمشقية من تجار ومهنيين وأصحاب حوانيت يمولون الحركة الوطنية ويقودونها من حوانيتهم ومنازلهم)[٦].

هكذا كانت البيئة المحيطة بنزار بيئة تشغيل بنيران الثورة والنضال والمقاومة ضد المستعمر الفرنسي وكان زعماء المقاومة من مختلف المهن والحرف وليس قصراً على بيئة أو طائفة بعينها بل أن اقرب

المقربين لنزار وهو والده كان واحداً من هؤلاء الزعماء حين يقول : (أبى توفيق القباني كان واحداً من أولئك الرجال وبيتنا واحداً من تلك البيوت ويا طالما جلست في باحة الدار الشرقية الفسيحة استمع بعشق طفولي غامر إلى الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا ويخطبون في ألوف الناس مطالبين بمقاومة الإحلال الفرنسي ومحرضين على الثورة من اجل الحرية[٧].

من هنا نستطيع القول أن نزار نشا في بيئة عربية وطنية وفي منطقة تعتبر مصنعاً للحركة الوطنية وفي بيت كان كعبة يطوف حولها الزعماء والقادة ومن صلب رجل كان من هؤلاء الزعماء والمناضلين البارزين ويظهر اهتمام نزار بافتخاره بوطنية أبيه ونشأته في تلك البيئة التي نطق أول كلماته الشعرية في أجوائها السياسية .

إن القول بعدم اكتراث نزار بالهموم الوطنية والقضايا السياسية منذ ميلاده كشاعر حتى عام النكسة هو قول عام قد يكون فيه بعض التعسف والظلم لنزار قبل البحث في بطون دواوينه والوقوف على حقيقة الأمر[٨].

فعلى سبيل المثال إذا تأملنا ديوانه الشعري الأول ((قالت لي السمراء)) والذي يحتوي على ثمان وعشرين قصيدة تدور حول المرأة والغزال نجد انه يتطرق إلى ذكر الوطن في بعض المواضع وإن كانت هذه المواضع الوطنية قد جاءت على استيحاء مثل قصيدة ((ورقة إلى القارئ)) التي يقول فيها:

أنا لبلادي . . لنجماتها
لغيماتها للشذا .. للندى
سفحت قوارير لوني نهوراً
على وطني الأخضر المفتدى

وفي قصيدة أخرى بعنوان ((اسمها)) يقول وهو يلمح إلى الوطن :

كقطيع من المواويل حطت
في ذرى موطني الأنيق الأنيق
اسمها ركضه النبيذ بأعصابي
وزحف السرور طي عروقي

وفي القصيدة الثالثة ((حبيبة وشتاء)) يرقى بهذا الحب إلى الحبيبة الكبرى سورية فيقول:

احبك في مراهقة الدوالي
وفيما يضمر الكرم الرضيع
وفي ترع الغمائم في بلادي
وفي النجمات في وطني تضيع

وفي القصيدة الرابعة ((إلى مصطافة)) يربط بين الوطن والمحبوبة فيقول:

لأغزل غيم بلادي شريطاً
يلف جدائله الراعدهْ
لأغسل رجليك يا طفلتي
بماء ينابيعها الباردة

تلك هي المواضع الأربعة التي تحدث فيها نزار عن الوطن واعتبرها الإرهاصات الأولى للشعر السياسي عند نزار بل بعضهم يقول ((نلاحظ منذ الورقة الأولى أن الشاعر لم يغفل عن الخط الوطني))[٩]. ولكنه قول فيه كثير من المبالغة.

حيث جاء ذكر بلاده أو وطنه مفرغاً من أي دلالة سياسية أو بعد وطني كما انه وإن كان يرصد أحاسيس ومشاعر فإنه لم يقدم فكراً أو توجهاً وإن كانت قصيدته الأولى توهم بذلك إلا أنها كتقدمه تفقد قيمتها الدعائية مع الدخول في بحر أول قصيدة تليها واكتشاف أن شاعرنا مسكون بهموم أخرى غير هموم الوطن إنها هموم الجنس والشهوة التي يجسدها هذا الديوان[١٠].

وكان من المفترض والمنطقي أن يشتمل هذا الديوان على العديد من القصائد الوطنية التي تنسجم مع افتخار نزار بوطنية الحي الذي ولد ونشا فيه وما شاهده فيه من ألوان مقاومة الاحتلال الفرنسي وكذلك مع افتخاره بوطنية أبيه الذي جعل بيته مقراً للأحرار وحصناً للثورة[١١].

كان يمكن أن يترجم هذه النشأة في ذلك المناخ الثوري ـ كما صورها نزار ـ كما فعل غيره من الشعراء السوريين والعرب فيهتف مثلما هتف خير الدين الزركلي مثلاً.

الأهل أهلي والديار وديا ري
وأشعار وادي النيرين شعاري
ما كان من ألم بجلق نازل
وارى الزناد فزنده بي وارى
إن الدم المهراق في جنباتها
لدمى . . وإن شفاؤها لشفارى[١٢]

فإذا رصدنا ديوانه الشعري الثاني الشهير ((طفولة نهد)) والذي انتهى منه نزار قباني بعد تحرير سورية من الاحتلال الفرنسي بعام واحد وبعد أن تخرج نزار من كلية الحقوق والتحاقه بالعمل السياسي والدبلوماسي نجد أن هذا الديوان قد احتوى على ٣٧ قصيدة أطلق على واحدة اسم ((بلادي)) تحدث فيها عن خيرات بلاده مفتخراً بها معدداً حسناتها قائلاً:

جبالنا مروحة
للشرق .. غرقى لينه
توزع الخير على الدنيا
ذرانا المحسنة
يطيب للعصفور أن
بيني لدنيا مسكنه
ويغزل الصفصاف في حضن السواقي موطنه
حدودنا بالياسمين
والندى محصنة
ووردنا مفتح
كالفكر الملونة
وعندنا الصخور تهوى
والدوالي مدمنة
وإن غضبنا
نزرع الشمس .. سيوفاً مؤمنه
بلادنا كانت . . وكانت بعد هذى الأزمنة[١٣]

وهي وإن كانت قصيدة وطنية لفظاً وأسلوبا وعنواناً فهي على صعيد اللغة مستلة من معجمه الغزلي وعلى صعيد الصورة لا تختلف عن البوم صوره وعلى صعيد المضمون لا تترجم أي موقف سياسي أو انشغال بأية قضية وطنية أو قومية فهي قصيدة لا تعد دخلية بين قصائد هذا الديوان الذي لم تخطر فيه هموم الوطن على بال نزار البتة حتى استقلال سورية وجلاء القوات الفرنسية عنها صبيحة السابع عشر من إبريل ١٩٤٦ الذي هلل له معظم شعراء سورية والوطن العربي[١٤]، فإنه لم يحرك مشاعر نزار الوطنية مثلما حرك مشاعر ابن حماه بدر الدين الحامد الذي قال:

هذا التراب دم بالدمع ممتزج
تهب منه على الأجيال انسام
يوم الجلاء هو الدنيا وزهرتها
لنا ابتهاج وللباغين إرغام

لقد ثأرنا والقينا السود وإن
مرت على الليث أيام . . وأعوام
فيا فرنسا ارجعي بخزي صاغرةً
ذكراك في صفحة التاريخ أثامُ[١٥]

وإذا كانت نكبة فلسطين لها خصوصية لدى نزار قباني واهتمام متميز فإنه لا يخفي على أحد أن هموم فلسطين بدأت منذ النكبة عام ١٩٤٨م وقبلها بسنوات طويلة وقد استشرف الأدب العربي عامة والأدب الفلسطيني على وجه الخصوص النكبة وحذر من ويلاتها ورصد خيوط المؤامرة التي اتضحت مراميها مع زمن الانتداب الإنجليزي على فلسطين وواكب مجريات الأحداث وشحذ الهمم ثورة بعد ثورة وشرح أسباب المصائب التي حلت بالشعب الفلسطيني وكشف سوءات السماسرة ومحترفي السياسة وتجار الوطنية والشعارات الزائفة.
نعم لقد صرخ الشعراء وزمجر الخطباء وارتفع أنين الكتاب تحت نير المرحلة وفي أغلال المؤامرة وكانت الغاية الأولى بين غايات أدب تلك المرحلة هي التنوير والتثوير على ما يحاك للشعب الفلسطيني وأرضه. لقد كانت إبداعاتهم جميعاً ناقوس خطر دائم القرع ينذر بالضياع للبلاد والعباد[١٦].
والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول الشاعر محمد حسن علاء الدين:

قلبي يحدثني بيوم مفجع
يدنى العدى . . ويبعد الأصحاب
يا قلب لا تنبس بأي فجيعة
هل خففت شكوى تبث عذابا[١٧]

أو كما قال الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان منبهاً للنكبة قبل وقوعها بحوالي ١٣ عاماً:

أمامك أيها العربي يوم
تشيب لهوله سود النواصي
وأنت كما عهدتك لا تبالي
بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأدنى

وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غداً بباق
لسكانها ولا ضيق الخصائص
لنا خصمان ذو حول وطول
وأخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فآتي وبالاً
وإذلالاً لنا ذاك التواصي
مناهج للإدارة واضحات
وبالحسنى تنفذ .. والرصاص[١٨]

ومثل ذلك قول برهان الدين العبوسي منذراً هو الآخر بوقوع الكارثة في قصيدة بعنوان ((الوطن المبيع))

لهفي على الليث المهدد غابه
قد كان اجدر أن يموت بغابة
والحر يدفع عن حماه بسيفه
فإذا تحطم سيفه . . فبنابه
فالمجد لا يبني بغير جماجم
والمجد تحميه سيوف غضا به
إن كان الاستقلال يؤخذ عنوةً
والموت فيه فنحن من أربابه[١٩]

هؤلاء شعراء لم يبلغوا شيئاً من الذي بلغه نزار من الشهرة والذيوع كما انهم قد يتضاءلون فنياً أمام المستوى الفني والشعري لنزار قباني وبالرغم من ذلك كان لهم ذلك الحس الوطني وذلك الحضور فكانوا على مستوى الحدث قلباً وقالباً حساً وأداء شعوراً وشعراً.

أما ما كتبه نزار قباني من قصاصات في الوطن فحرى بنا أن نفرق فيها بين الوطنية والمواطنة ، فالوطنية هي الشعور الوطني أما المواطنة فهي الشعور بالسكن والإقامة. وما كتبه نزار هو نوع من

المواطنة من حيث الحديث عن البلد والوطن والتغزل في ربوعه وسمائه ونجومه ونسيمه وأشجاره وهذا يختلف عن الشاعر المسكون بهموم الوطن وآماله وآلامه.

وبالرغم من هذه النتف القصير والقصاصات السريعة التي تبدو كالرقع في الثوب الشعري لنزار قباني والتي حاول البعض إطلاق اللون الوطني عليها نقول أن نزار كان بعيداً كل البعد عن هموم الوطن السوري كجزء أو الوطن العربي ككل في الفترة التي سبقت نكسة ١٩٦٧ م فقد رأينا كيف أن ديوانيه الأول والثاني قد صدر في فترة مشتعلة بالمخاض الثوري والنضالي وبالرغم من ذلك لم يتجسد الحس الوطني فيهما.

كما صدر ديوانه الثالث ((سامبا)) عام ١٩٤٩م أي بعد نكبة فلسطين بعام واحد وبالرغم من ذلك خصصه نزار كله للحديث عن جسد المرأة ومكانتها الحسية ، ثم يصدر ديوان الرابع ((أنت لي)) عام ١٩٥٠ والذي يضم ٣٢ قصيدة انفردت جميعها في تصوير جسد المرأة وأدوات الزينة ومواطن الإثارة والفتنة في الوقت الذي كانت فيه قضية فلسطين تتربع في سويداء قلوب الشعراء في تلك المرحلة.

ففي الوقت الذي يقول فيه الشاعر على محمود طه غاضباً:

آخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدى
أنتركهم يغضبون العروبة مجد الأبوة والسؤددا
اخي إن في القدس أختا لنا اعد لها الذابحون المدى

كما نجد شاعر سورية عمر أبو ريشة يقول:

أمتي هل لك بين الأمم
منبر للسيف أو للقلم
الإسرائيلي تعلو راية؟
في حمى المهد . . وظل الحرم

نجد نزار لاهياً عابثاً منشغلاً ومسكوناً بالمرأة:

ألوان أثوابها تجري بتفكيري
جرى البيادر في ذهن العصافير
ألا سقى الله أياما بحجرتها
كأنها أساطير الأساطير
أين الزمان وقد غصت خزانتها
بكل مستهتر الألوان معطور

فثم رافعة للنهد . . زاهية
إلى رداء . . بلون الوجه مسعور

ولعل بعض النقاد يتساءلون لماذا كان غضب نزار وثورته على العرب وممارسات الحكام العرب وزيف شعاراتهم التي أدت إلى هزيمة ١٩٦٧م وانه إذا كان هذا الغضب والهجاء السياسي المر موقوتاً باحتلال اليهود للأرضي العربية عقب النكسة فمن حقنا أن نتساءل أين كان غضب نزار حينما احتل اليهود القسم الأكبر من فلسطين عام ١٩٤٨م وكيف استطاعت إسرائيل وهي دولة ناشئة عمرها أيام تقوم على بعض الشراذم اليهودية وبعض العصابات المسلحة التي جمعت من الأفاقين وشذاذ الأرض.. استطاعوا أن ينتصروا على سبعة جيوش عربية.

وأين كان غضب نزار حيال المجازر التي ارتكبها الإسرائيليون ضد الفلسطينيين ولكن هذا السؤال الذي يطرح نفسه بشدة وبإلحاح قد يرد عليه بان نزار اسهم في الكتابة عن نكبة ١٩٤٨م وإن كان ذلك الإسهام لم يقتصر على اكثر من قصيدة أو قصيدتين هما ((قصة راشيل شوارزنبرج)) ثم القصيدة التي هاجم بها سلوكيات بعض الزعماء العرب وتخاذلهم تجاه قضية فلسطين.

وهذا التواضع النزاري في معالجة أحداث ١٩٤٨م ربما يكون مرجعه أن المأساة الفلسطينية لم تكن بهول ما حدث عام ١٩٦٧م إلى جانب ان الحلم العربي الكبير والآمال التي عقدها العرب على زعامة جمال عبد الناصر وجيش مصر ثم الشحن الإعلامي المتزايد قبل النكسة قد تحول إلى رد فعل قوي وغاضب ومدمر عندما وقعت الصدمة العربية الكبرى بعد خيبة كل الآمال والطموحات إثر نكسة ١٩٦٧ إلى جانب أن الشاعر لم يكن قد نضج بعد كشاعر هجاء سياسي وكان في تلك الفترة مشغولاً بالوظيفة التي عين نفسه عليها وهي أن يعمل حارساً ليلياً وأبديا على مخدع المرأة وكان وقتها في فترة الشباب والرعونة والمراهقة الأبدية كما أن هزيمة ١٩٤٨م لم تكن مبرراً كافياً لكي يجلد العرب ويمارس معهم تلك الممارسات السادية لتعذيبهم .. فإن خسارة جولة ليست نهاية العالم وإذا كان العرب قد هزموا عام ١٩٤٨م فإن المسلمين بقيادة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) قد هزموا في أحد . . ولكن أن يهزموا عام ٤٨ ويهزموا عام ٥٦ ويهزموا عام ٦٧.. إذن لم تكن المسالة مسالة ظروف أو مجرد خسارة جولة بل المسالة أصبحت عدم استعداد المقاتل العربي للانتصار ولو لمرة واحدة لذلك فقد قرر نزار أن هزيمة ٦٧ قد صادرت منابع شعره في المرأة ولم يبق له ألا منبع واحد يغترف منه الشعر السياسي ويدلل على ذلك بتلاشي عاطفة الحب أمام جبروت مشاعر الغضب ويقرر أيضا أن هذه المشاعر لن تزول إلا بزوال الاحتلال عن الأراضي المحتلة وقد جسد ذلك المعنى في قوله:

حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين

ويقول نزار عن هذا التحول ((لم يبق بعد حزيران للشاعر سوى حصان واحد يمتطيه هو الغضب . . ولكن أين يبدأ حدود هذا الغضب وأين ينتهي صعب على كثيراً أن ارسم حدود غضبي فطالما أن هناك سنتيمتراً واحداً من ارضي تحتله إسرائيل وتذله وتقيم عليه مستعمراتها فإن غضبي بحر لا ساحل له))[٢٠].

وبالرغم من قولنا بان جذور المد الشعري الوطني عن نزار بدأت منذ أوائل الخمسينات أي قبل النكسة بحوالي ١٣ عاماً إلا أن النكسة تظل هي المحرك الأول لشعر نزار السياسي وهي الحدث الأكبر الذي هز أعماقه هزاً وافرز لنا شاعراً من نوع آخر خرج من بوتقة المحن وانصهر مع نار الويلات التي أعقبت ١٩٦٧م.

ولكننا يجب أن نتوقف عند أربع قصائد مهمة شكلت الحس الوطني عند نزار وبلورته بشكل يستحق الإشارة ومنها أربع قصائد حملت عناوين (عندنا ـ إلى عينين شماليتين ـ القميص الأبيض ـ عودة التنورة المزركشة) دون أن تحمل هذه القصائد أية دلالة سياسية أو مضمون وطني تكاد تكون متسقة مع سياق القصائد العاطفية الغزلية ونعتبرها نوعاً من الغزل الوطني إن صح التعبير أو التغني بالبلاد عوضاً عن التغني بالمحبوبة .. وقد تعودنا من الشعراء العرب في سوريا ولبنان وبلاد الشام أن يتغنوا بالمدن والبلاد مثلما يتغنى اللبنانيون كثيراً بلبنان أو بيروت بقصائد هي اقرب ما تكون إلى القصائد الغنائية العاطفية.

وهناك أيضا قصيدة مهمة أثارت لغطاً كثيراً يوم صدورها وفتحت على نزار أبواب جهنم وهي قصيدة (خبز ـ وحشيش وقمر) التي أصدرها عام ١٩٥٤م وقد أثارت معانيها حفيظة الشارع الإسلامي وكان موقف رجال الدين منها اشد ضراوة من موقفهم من ديوانه ((قالت لي السمراء)) وما ينطوي عليه من المعاني الإباحية[٢١] إذ تطاول فيها نزار على القيم الإسلامية واستهزاء بمعتقدات المسلمين ومقدساتهم في مثل قوله:

في ليالي الشرق لما
يبلغ البدر تمامه
يتعرى الشرق من كل كرامة
ونضال

فالملايين التي تركض من غير فعال
والتي تؤمن في أربع زوجات
وفي يوم القيامة
تتردى جثثاً تحت الضياء
في بلادي حيث يبكي الأغبياء
ويمتون بكاء
كلما طالعهم وجه الهلال

وقد ارجع بعض النقاد تمرد نزار على الواقع العربي وسخريته ببعض المقدسات والمعتقدات الإسلامية إلى طبيعة عمله في السلك الدبلوماسي ونوع تلك الحياة التي كان يحياها في لندن والتي تقوم على الحرية التي قد تصل حد الإباحية والتمرد على تقاليد الشرق[٢٢].

وتعتبر هذه القصيدة بداية معركة نزار مع الواقع العربي المتردي والممارسات الشاذة وكبت الحريات خاصة إذا علمنا أن هناك وجعاً خاصاً يغوص في أعماق نزار بسبب الكبت الشرقي حيث كانت له أخت يكن لها حباً خاصاً قد انتحرت وقتلت نفسها بسبب العادات والتقاليد الشرقية والتي كانت سبباً في حرمانها من الزواج ممن تحب وتهوى ، وكان لهذا الحادث الأليم صدى عميق وقوي في أعماق نزار ظل يعيش معه طوال حياته.

فهذا المجتمع الشرقي بكل قسوته وجحوده وتخلفه وتسلطه هو الذي قتل أخته وهو الذي اسلم فلسطين عام ١٩٤٨م وهو الذي تسبب بجهله وتسطيحه وتخاذله وغروره في نكسة ١٩٦٧م.

وقد أشار نزار إلى أهمية تلك القصيدة قائلاً:

كانت أول مواجهة بالسلاح الأبيض بيني وبين الخرافة وبين التاريخيين[٢٣]، أما القصيدة الثانية التي تستحق الوقوف عندها طويلاً والتي كتبت عام ١٩٥٥ والتي يتوجه فيها إلى الصغار وإلى النشئ الذين يرى فيهم الأمل ويعرى أمامهم جيل الآباء المهزومين:

اكتب للصغار
للعرب الصغار حيث يوجدون
لهم على اختلاف اللون والأعمار ولعيون
اكتب للذين سوف يولدون
لأعين يركض في إحداقها النهار

فالأمل عند نزار دائماً في المستقبل . . في الآتي . . في الجيل القادم لعله يكون جيلاً افضل من جيل الآباء . . وهذا الأمل يعتبر دليلاً قوياً ضد الذين يتهمون نزار بالشعوبية وبكراهيته للعرب بالرغم من انه منهم وانه يعذب العرب من خلال هجائه السياسي لمجرد انهم عرب ويتصدى لممارستهم الحياتية بشيء من الشماتة والسخرية والتقريع إلى حد الهجوم الشديد والنقد اللاذع . . وإذا كان نزار شعوبياً لما اتجه بآماله إلى الأطفال فهم عرب أيضا ومن انسال هؤلاء العرب الذين يهاجمهم . . فهو كان يمكن أن يوصف بأنه شعوبي إذا هاجم العرب واتجه بالأمل والمدح لشعب آخر غير العرب ليحرر العرب . . ولكنه يؤكد أن العرب متهمون بسبب بعض الممارسات الخاطئة بسبب بعض التراكمات والتداعيات النفسية والاجتماعية والسياسية وليس لكونهم عرباً . . يقول نزار موجهاً حديثه للأطفال:

وليذكر الصغار
حكاية الأرض التي ضيعها الكبار
وليذكر الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم ومن سيولدون
ما قيمت التراب
لأن في انتظارهم معركة التراب

حتى عندما كبر هؤلاء الأطفال وتحملوا مسؤولية النضال القومي على اعتبار أن من كانوا أطفالا عام ١٩٤٨م اصبحوا مجندين في الجيوش العربية عام ١٩٦٧م هم أيضا توارثوا كل سلبيات ومعتقدات ومخلفات آبائهم وأجدادهم وتكررت نفس الممارسات المتخاذلة وهزم جيل ١٩٦٧م أيضا . . لم يفقد نزار الأمل وظل يتطلع إلى الجيل الجديد وهو أيضا من العرب ـ وراح يخاطب الأطفال الجدد ويعقد عليهم الآمال قائلاً في هوامش على دفتر النكسة:

انتم بذور الخصب في حياتنا العقيمة
وانتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة
وحتى لا تتكرر مشكلة تواصل الأجيال والتأثير والتأثر وتوارث الأخطاء والسلبيات . . يوصي الجيل القادم قائلاً:
لا تقراوا أخبارنا
لا تقتفوا آثارنا

لا تقبلوا أفكارنا
فنحن جيل القيء والزهري والسعال
ونحن جيل الدجل والرقص على الحبال
كان يخشى على الأطفال من انتقال العدوى إليهم.

وفي قصيدة ((راشيل شوارزنبرج)) التي كتبها عام ١٩٥٥م يعرض فيها قصة راشيل تلك المومس اليهودية التي تدير بيتاً للدعارة في ألمانيا ثم تهاجر مع مهاجري اليهود الغربيين إلى فلسطين حيث جندت نفسها في عصابات الإرهاب التي كونت فيما بعد جيش إسرائيل.

يقول نزار:
كان أبوها من اقذر اليهود
يزور النقود
وهي تدير منزلاً للفحش في براغ
يقصده الجنود
. . . . . .
وأبحرت من شرق أوربا مع الصباح
سفينة تلعنها الرياح
وجهتها الجنوب
تغص بالجرذان . . والطاعون . . واليهود
كانوا خليطاً من ثقافة الشعوب
من غرب بولندا
من النمسا من استنبول . . من براغ
من آخر الأرض . . من السعير
جاءوا إلى موطننا الصغير
ولطخوا ترابنا
واعدموا نساءنا
ويتموا أطفالنا

ويستطرد الشاعر في أسلوب قصص عابته المباشرة والخطابة والبعد عن الخيال الشعري شارحاً قصة المجندة اليهودية:

قصة إرهابية مجندة
يدعونها راشيل
حلت محل أمي الممدة
في ارض بيارتنا الخضراء في الخليل
أمي أنا الذبيحة المستشهدة
أختي التي علقها اليهود في الأصيل
من شعرها الطويل
أختي أنا نوار
أختي أنا الهتيكة الأزرار
على ربى الرملة والجليل
أختي التي ما زال جرحها الطليل
مازال بانتظار
نهار ثار واحد نهار ثار
على يد الصغار
جبل فدائي من الصغار
يعرف عن نوار
وشعرها الطويل
وقبرها الضائع في القفار
اكثر مما يعرف الكبار

ونحن هنا نقدم هذه القصيدة على سبيل رصد حركة الشعر السياسي وجذوره عند نزار قباني بصرف النظر عن المستوى الفني للقصيدة التي يصل الأسلوب فيها إلى حد الركاكة وكان نزار قد كتبها ارتجالاً ولم يعطها حقها من ((النضج على نار هادئة)) حتى أن بعض الألفاظ والجمل قد وضعت لمجرد مجاراة القافية مثل الهتيكة الإزار ـ جرحها الطليل ـ الضائع في القفاز ، ولكن أهمية هذه القصيدة يعود فقط على اعتبار أنها علامة مرورية شاخصة على طريق الشعر السياسي عند نزار قباني.

ولكننا نؤكد هنا بما لا يدع مجالاً للشك أن قصائد نزار الوطنية أو السياسية أن صح التعبير كانت مجرد ((مجاملة)) شعرية من الشاعر أو نوع من إثبات الذات على الساحة أو نوع من ((الخجل الوطني))

ليؤكد الشاعر وجوده ودليلنا واضح من الفتور الواضح في تلك القصائد وخلوها من العاطفة المشبوبة الجياشة المعروفة والتي تصل درجة حرارتها في بعض الأحيان إلى درجة لسع النار.
وعندما تقع حرب ١٩٥٦ نجد نزار ((مجنداً إجبارياً في صفوف الجيش المصري من خلال أربع وسائل صغيرة يرسلها جندي مصري في جبهة القتال لأبيه يقول نزار على لسان ذلك الجندي :

ياولدى هذى الحروف الثائرة تأتي إليك من السويس
تأتى إليك من السويس الصابرة
إني أراها يا آبي من خندقي
سفن اللصوص
محشورة عند المضيق
هل عاد قطاع الطريق
يتسلقون جدارنا
ويهددون بقاءنا

وفي الرسالة الرابعة من الجندي إلى أبيه يقول نزار:

مات الجراد
أبتاه ماتت كل أسراب الجراد
لم تبق سيدة ولا طفل ولا شيخ قعيد
في الريف في المدن الكبيرة .. في الصعيد
إلا وشارك يا آبي
في حرق أسراب الجراد
في سحقه في ذبحه حتى الوريد
هذى الرسالة يا آبي من بور سعيد
من حيث تمتزج البطولة بالجرح وبالحديد
من مصنع الأبطال اكتب يا آبي
من بور سعيد

ويقع الشاعر في التسطيح الشعري وفي النثرية وفي الركاكة وتصبح قصيدته كأنها مسودة قصيدة لم تراجع ولم تنقح وإلا لكان الشاعر قد أدرك على سبيل المثال ركاكة وضحالة قوله:

في سحقه . . في ذبحه حتى الوريد

إذ ما قيمة الذبح بعد السحق .. وما قيمة ((حتى الوريد)) إذا كان الذبح لا يكون إلا من الوريد ولكنها كما قلنا مجرد إشارات على الطريق أراد نزار أن يستخرج بها جواز سفر سياسياً في مجال الشعر الوطني يأخذ به تأشيرة دخول إلى قلب ووجدان المواطن العربي.

ولنزار قصيدة أخرى كتبها في نفس العام ١٩٥٥ يتحدث فيها عن المناضلة الجزائرية الشهيرة جميلة بو حريد بطلة قرية عامر بن بولاد التي اشتعلت بالثوار ضد الاستعمار الفرنسي .. يقول نزار:

يا ربي .. هل تحت الكواكب
يوجد إنسان
يرضى أن يأكل أن يشرب
من لحم مجاهدة تصلب
. . . . . .
أنتي كالشمعة مصلوبة
القيد بعض القدمين
وسجائر تطف في النهدين
ودم في الأنف وفي الشفتين
وجراح جميلة بو حيرد
هي والتحرير على موعد
الاسم جميلة بو حريد
تاريخ ترويه بلادي
يحفظه بعدي أولادي
تاريخ امرأة من وطني
جلدت مقصلة الجلاد

وإن كانت قصيدة جميلة بو حيرد اقرب إلى التجربة الشعرية من قصائده السابقة تبدو فيها صدق العاطفة كما تبرز بعض الصور التي تثرى الخيال الشعري في القصيدة وتبعدها إلى حد كبير عن النثرية التي وقع فيها نزار.

ثم يأتي عام ١٩٥٨م ليصدر نزار قصيدة ((الحب والبترول)) أعلن فيها الحرب على حكامنا العرب وحملهم سبب المآسي التي لحقت بالعرب وجعلهم الشماعة التي وضع عليها الأخطاء:

تمرغ يا أمير النفط . . فوق وحول لذاتك
كممسحة تمرغ في ضلالاتك
لك البترول فاعصره على قدمي خليلاتك
كهوف الليل في باريس قد قتلت مروءتك
على أقدام مومسة هناك
دفنت ثاراتك
فبعت القدس .. بعت الله
بعت رماد أمواتك
كان حراب إسرائيل لم تجهض شقيقاتك
ولم تهدم منازلنا . . ولم تحرق مصاحفنا
ولا راياتها ارتفعت على أشلاء راياتك
كان جميع من صلبوا
على الأشجار في يافا . . وفي حيفا
وبئر ليسوا من سلالاتك
تغوص القدس في دمها
وأنت صريع شهواتك
تنام كأنما المأساة ليست بعض مأساتك
متى تفهم
متى يستيقظ الإنسان في ذاتك

والقصيدة تحتوي على هجوم شديد وهجاء لاذع للذين يهدرون الثروات العربية على الغواني والملذات وينامون عن نصرة قضايا النضال العربي ، وإن كانت القصيدة تتسم بالنضج الشعري والبعد عن الخطابية والسردية ومن المحصلة لما سبق نقول انه رغم أن تلك الفترة التي سبقت يونيه ١٩٦٧م كانت حافلة بالأحداث الجسام وحافلة بحركات النضال وثورات التحرر ضد المستعمر الأجنبي وان الأرض العربية كلها كانت تشتعل ناراً في مصر وفي فلسطين وسورية والعراق والجزائر وعدن وغيرها

وغيرها على امتداد الوطن العربي إلا انه من الملاحظ أن نزار قباني على مدار ٢٣ سنة منذ إصدار ديوانه الشعري الأول وحتى عام ١٩٦٧م لم يسفر إلا عن أربع قصائد وطنية هي كالتالي:

قصة راشيل شوارزنبرج عام ١٩٥٥

رسائل جندي في جبهة السويس عام ١٩٥٦

جميلة بو حيرد عام ١٩٥٧

الحب والبترول عام ١٩٥٨

فكأننا به على مدار ثلاث وعشرين سنة قد اخرج أربع مرات استنشق فيها هواء القومية العربية لبرهة قصيرة ثم عاد لمخدعه.

ولم تمر إلا سنتان كان زلزال نكسة ١٩٦٧م فأخرجت لنا تزارا جديداً مسكوناً بهموم وطنه مشغولاً بقضايا الأمة العربية.

لماذا الهجوم على عبد الناصر

من الملاحظ أن القصيدة بكل أبياتها وأبعادها وتوجهاتها السياسية والنقدية هي رسالة (غاضبة) وثائرة إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر باعتباره زعيم الأمة العربية وقائد النضال العربي والأب الروحي لكل العرب ورئيس اكبر دولة عربية هي مصر وقائد اكبر وأقوى جيش عربي تصدى للصراع العربي مع إسرائيل ومع الامبريالية العالمية ولكل القوى المعادية للحقوق العربية ولأنه يمثل بالنسبة لنزار ولكل العرب الحلم العربي الكبير الذي سقط وانهار في لحظة . . وهو كل الأماني والطموحات العربية التي تحولت صباح الخامس من يونية ١٩٦٧م إلى حطام وركام ، ولأن الشاعر شانه كل مواطن عربي غيور أن يصب جام غضبه على الزعيم جمال عبد الناصر لأنه كما قال نزار:

كنت الصديق وكنت الصدوق

وكنت أبانا

. . . . . .

نفضت غبار الدراويش عنا

أعدت إلينا صبانا

وسافرت فينا إلى المستحيل

وعلمتنا الزهور والعنفوان

فهو الأب الروحي لكل العرب وهو التجسد الحي لكل الأماني القومية وهو الصديق الذي تبثه شؤونك وشجونك وهو الأب الذي ترتمي في حضنه وتبكي طويلاً فيمسح بيديه الدموع ويربت على الكتفين.
لذلك يقول له نزار مؤكداً ذلك المعنى في إحدى قصائده في رثائه:

أتينا إليك بعاهاتنا
وأحقادنا وانحرافاتنا
إلى أن ذبحناك ذبحا
بسيف أسانا
فليتك في أرضنا ما ظهرت
وليتك كنت نبي سوانا

فهو دائماً حائط الصد الذي يتلقى هجمات الأعداء والأصدقاء وهو الذي تلقى عليه عبارات اللوم والشتائم وهو الذي يتلقى اللعنات والطعنات ويدفع فاتورة كل الأخطاء والسلبيات . . حتى اصبح عبد الناصر ـ بحكم العادة والتعود ـ هو ملجأ المواطن العربي عند اللهفة وهو المذبح الذي تراق عنده الدماء وتهال عليه الرمال ويعفر وجهه بالتراب ويسلخ جلده عند الهزائم ودائماً الزعيم هو الذي يدفع كشف حساب كل العرب لكل العرب.
ونزار في قصيدة هوامش على دفتر النكسة يوجه رسالة غضب إلى الزعيم عبد الناصر ويقلب المائدة عليه وهو عندما يلومه يلوم كل العرب وهو عندما يسبه ويشتمه يشتم فيه كل الواقع العربي المرير وهو عندما يهيل عليه التراب يهيل التراب على كل العرب مجتمعين ومجسدين في عبد الناصر . . حتى عندما يسخر منه ويهجوه هجاء مقذعاً يهجو فيه الإنسان العربي والممارسات العربية المستفزة حتى عندما يريد أن يوبخ الأنظمة العربية والقمع العربي والسلبية والتواكلية والانهزامية لا يجد أمامه وسيلة إلا أن يقذف عبد الناصر بالبيض الفاسد في موجة المظاهرة العربية الغاضبة.
لذلك فنحن نعتبر قصيدة ((الهوامش)) هي رسالة نزار إلى عبد الناصر لذلك فعندما منعت القصيدة وصودرت في مصر أرسل نزار رسالة خطية إلى عبد الناصر استجاب لها عبد الناصر واصدر قرارات فورية بمنع كل الإجراءات التعسفية ضد القصيدة وضد الشاعر.
وبالرغم من أن نزار كتب بعد النكسة وعلى مدار ٣١ عاماً عشرات القصائد السياسية كلها مجموعة الغام متفجرة واقلها وطأة يمثل سوطاً يلهب به نزار ظهر الأمة العربية المتلبدة . . إلا أن بعض هذه القصائد كان خطاباً سياسياً موجهاً إلى عبد الناصر ومن هذه القصائد:

هوامش على دفتر النكسة	عام ١٩٦٧
الممثلون ، استجواب	عام ١٩٦٨
شعراء الأرض المحتلة	عام ١٩٦٨
فتح	عام ١٩٦٨
القدس	عام ١٩٦٩
منشورات فدائية على جدار إسرائيل	عام ١٩٧٠
إفادة في محكمة الشعر	عام ١٩٧٠
ثلاث قصائد في رثاء عبد الناصر	عام ١٩٧٠

هوامش على دفتر النكسة

رسالة غاضبة إلى عبد الناصر

(١)

أنعى لكم يا اصدقائي اللغة القديمة
والكتب القديمة
أنعى لكم
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر والهجاء والشتيمة
أنعى لكم . . أنعى لكم
نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة

(٢)

مالحة في فمنا القصائد
مالحة ضفائر النساء
والليل والأستار والمقاعد
مالحة أمامنا الأشياء

(٣)

يا وطني الحزين
حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين

(٤)

لان ما نحسه اكبر من أوراقنا
لابد أن نخجل من أشعارنا

(٥)

إذا خسرنا الحرب . . لا غرابة
لأننا ندخلها . .
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطلبة والربابة
السر في مأساتنا
صراخنا اضخم من أصواتنا
وسيفنا أطول من قامتنا

(٦)

خلاصة القضية

توجز في عبارة
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهلية

(٧)

بالناي والمزمار
لا يحدث انتصار

(٨)

كلفنا ارتجالنا
خمسين ألف خيمة جديدة

(٩)

لا تلعنوا السماء
إذا تخلت عنكم
لا تلعنوا الظروف
فالله يؤتي النصر من يشاء
وليس حداداً لديكم يصنع السيوف

(١٠)

يوجعني أن اسمع الأنبياء في الصباح
يوجعني أن اسمع النباح

(١١)

ما دخل اليهود من حدودنا

وإنما . . .
تسربوا كالنمل من عيوبنا

(١٢)

خمسة آلف سنة
ونحن في السرداب
ذقوننا طويلة
نقودنا مجهولة
عيوننا مرافئ الذباب
يا أصدقائي
جربوا أن تكسروا الأبواب
أن تغسلوا أفكاركم وتغسلوا الثياب
يا أصدقائي
جربوا أن تقراوا كتاب
أن تكتبوا كتاب
أن تزرعوا الحروف والرمان والأعناب
أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضباب
فالناس يجهلونكم في خارج السرداب
الناس يحسبونكم نوعاً من الذئاب

(١٣)

جلودنا ميتة الإحساس
أرواحنا تشكو من الإفلاس
أيأمنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس
هل نحن (خير أمة أخرجت للناس)

(١٤)

كان بوسع نفطنا الدافق في الصحارى
أن يستحيل خنجراً . .
من لهب ونار
لكنه . .
وخجلة الأشراف من قريش
وأخجله الأحرار من اوس ومن نزار
يراق تحت أرجل الجواري
نركض في الشوارع
نحمل تحت إبطنا الحبالا
نمارس السحل بلا تبصر
نحطم الزجاج والأقفالا
نمدح كالضفادع
نشتم كالضفادع
نجعل من اقزامنا أبطالا
نجعل من أشرافنا أنذالا
نرتجل البطولة ارتجلا
نقعد في الجوامع
تنابلاً . . كسالى
نشرط الأبيات أو نؤلف الأمثالا
ونشحذ النصر على عدونا
من عنده تعالى

(١٦)

لو أحد يمنحني الأمان
لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان
قلت له يا سيدي السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائي
ومخبرك دائماً ورائي

عيونهم ورائي
أنوفهم ورائي
أقدامهم ورائي
كالقدر المحتوم . . كالقضاء
يستجوبون زوجتي
ويكتبون عندهم
أسماء أصدقائي
يا حضرة السلطان
لأنني اقتربت من أسوارك الصماء
لأنني
حاولت أن اكشف عن حزني وعن بلائي
ضربت بالحذاء
أرغمني جندك أن آكل من حذائي
يا سيدي
يا سيدي السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأن تصف شعبنا . . ليس له لسان
ما قيمة الشعب الذي ليس له لسان
لأن نصف شعبنا
محاصر كالنمل والجرذان
في داخل الجدران
لو أحد يمنحني الأمان
من عسكر السلطان
قلت له : لقد خسرت الحرب مرتين
لأنك انفصلت عن قضية الإنسان

(١٧)

لو أننا لم ندفن الوحدة في التراب

لو لم نمزق جسمها الطري بالحراب
لو بقيت في داخل العيون والأهداب
لما استباحت لحمنا الكلاب

(١٨)

نريد جيلاً غاضباً
نريد جيلاً يفلح الآفاق
وينكش التاريخ من جذوره
وينكش الفكر من الأعماق
نريد جيلاً قادماً
مختلف الملامح
لا يغفر الأخطاء . . لا يسامح
لا ينحني . .
لا يعرف النفاق
نريد جيلاً
رائداً..
عملاق..

(١٩)

يأ أيها الأطفال
من المحيط للخليج انتم سنابل الأمل
وانتم الجيل الذي سيكسر الأغلال
ويقتل الأفيون في رؤوسنا
ويقتل الخيال
يأ ايها الأطفال انتم ـ بعد ـ طيبون
وطاهرون كالندى والثلج .. طاهرون
لا تقراوا عن جيلنا المهزوم يا أطفال
فنحن خائبون

ونحن مثل قشرة البطيخ تافهون
ونحن منخورون .. منخورون .. كالنعال
لا تقراوا أخبارنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا أفكارنا
فنحن جيل القيء . . والزهري . . والسعال
ونحن جيل الدجل . . والرقص على الحبال
يأيها الأطفال:
يا مطر الربيع . . يا سنابل الأمل
انتم بذور الخصب في حياتنا العقيمة
وانتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة.

الهوامش

[١] ـ انظر قصيدة هوامش على دفتر النكسة .

[٢] ـ الضوء واللعبة ص ٤٧.

[٣] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسة ص٧٨.

[٤] ـ تصدر الشاعر المصري صالح جودت حملة الهجوم على نزار قباني ونشر عدة مقالات في الصحف المصرية محاولاً فيها عزل نزار عن القارئ المصري واستعداء السلطات المصرية ضده.

[٥] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسة ص٨٣.

[٦] ـ الأعمال النثرية الكاملة ص ٩,٢.

[٧] ـالأعمال النثرية الكاملة ص ٩,٢.

[٨] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسة ص٩٨.

[٩] ـ نزار قباني وعمر بن آبي ربيعه د. ماهر حسن فهمي.

[١٠] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسة.

[١١] ـ الأعمال النثرية الكاملة ص ٢٠٩ ـ ٢١١.

[١٢] ـ الأدب العربي المعاصر في سورية ط٢ ص٩٥ ، سامي الكيالي.

[١٣] ـ طفولة نهد ص٣٥ ، ٣٦.

[١٤] ـ الأدب العربي المعاصر في سوريا ص ٢٤ ، ٣٣.

[١٥] ـ الشعر بين الحربين ص ٢٧٧ ـ ٢٩٢.

[١٦] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسية ص ١٠٦ ، ١٠٧.

[١٧] ـ إبراهيم عبد الستار ، شعراء فلسطين العربية ص٢.

[١٨] ـ ديوان إبراهيم طوقان ص ٨٧.

[١٩] ـ الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، د. كامل السوافيري ص ١٥٤،١٥٥.

[٢٠] ـ الأعمال النثرية الكاملة ص ٤١٩.

[٢١] ـ نزار قباني وعمر بن آبي ربيعه ص ١٩٥.

[٢٢] ـ نزار قباني شاعر المرأة والسياسة ص١٢٨.

[٢٣] ـ الأعمال النثرية الكاملة ص٢٢.

THE BACKGROUNDS
OF NAZAR GABANI'S POLITICAL POETRY

BY

Dr. FADHIL MUHAMMED ABDULLAH AL-ZUBAIDI

(Abstract)

Critics are used to viewing Nazasr Al Qabani as a courtship poet or women poet ignoring the fact that he is a poet in all the sense of the word . thus I directed research towards all they what is related to this rich poetics . so I dealt with the periods which Al Qabani poetry went through . The period that preceded and followed Junes setback , and I found him a courtship and women poet and the national events did not occupy his attention a lot but he was not far away from it . I mean Damascus set back or Palatine[s] setback or the tripartite aggression in 1956 , but after this long period , he became a national part whose poetry became

affected by 1967 setback and he directed his range towards the president Jamal Abdula Nasar in his famous poem "A notebook about the Setbacks margins" . He directed his criticism towards the policy of the president Jamal and the Arab leaders, but after the death of Abdula Nasir he shifted suddenly by tackling the virtues of Abdula Nasir regretting his criticism and rage towards him by a new period began in which he was awakened and directed the blame towards the Arab leaders and their neglect in the national events . so this research came to represent all the periods which Al-Qabani went through in his poetic life. I reached at the fact that he is really the poet of women and politics as well as the other poets who interacted with the events.